خاتمـــــة

تناول هذا البحث دراسة " الحياة الأدبية فى الشام فى القرن الخامس الهجرى " وقد جاء فى تمهيد وبابين ، وتناول التمهيد ، نظرة فى الحيـــاة الادبية والفكرية فى الشام آنذاك ، وقد حاولنا بذلك أن ندفع ما اتُهم به القـرن الخامس من ركود أدبى . فالحركة الادبية نشطة ، وقد تمثلت فى بروز عدد كبير من الشعراء وعلى رأسهم أبو العلاء المعرى . كما تمثلت فى تعدد الحواضـــر الأدبية فى دمشق وطرابلس والقدس والمعره وداريا وعسقلان . وفى تلك الحواضر كانت تدار حلقات العلم فى المساجد . ففى دمشق المسجد الجامع ، وفى القدس المسجد الاقصى وغيرها . كما وجدت المدارس المختلفة التى أسست لتلقى الثقافة الاسلامية وما يتصل بها من علوم العربية . هذا بالاضافة الى خزائن الكتـــب المنتشرة فى تلك الحواضر الأدبية . ومن الجدير بالقول ان حاضرة طرابلس كانت من الحواضر الأدبية المتقدمة ، وخاصة فى عهد آل عمار . ولذلك شبهـــا بعض الباحثين بما كان عليه الحال فى بيئة حلب الأدبية فى عهد سيف الدولة .

أما الباب الأول من هذا البحث ، فقد تناول الشعر موضوعيا وفنيا ، ففى الفصل الأول درسنا الشعر فى بلاد الشام فى القرن الخامس الهجرى دراســة موضوعية ، فقسمنا اتجاهات الشعر الى أربعة اتجاهات وهى :

الاتجاه التقليدى ، وتحدثنا فيه عن المديح ، والفخر والرثاء ، والغزل والهجاء ، والوصف والحكمة والصراع والحنين والغربة .

وتحدثنا فى الاتجاه الثانى ، عن الزهد ممثلا فى شعر أبى العـــلاء ، والاتجاه الذى سلكه فى زهده ، وفيه تبينا الدوافع التى دفعت أبا العلاء الـى ذلك ، كما تبينا أن زهده كان مصطبغا بصبغة وعظية فلسفية . وأشرنا الى زهد أبى العتاهيه لتوضيح ما جاء به أبو العلاء ، وبعد ذلك أشرنا الى بعـــض الشعراء الذين تأثروا بأبى العلاء فى شعره الزهدى من أمثال بن أبى حصينـــة المعرى وابن سنان الخفاجى .

أما الاتجاه الثالث ، فقد درسنا فيه المجتمع كما يصوره الشعر ، وقسمنا ذلك الاتجاه الى قسمين : تناول أولهما بعض الظواهر الاجتماعية التى كانـــت تسود المجتمع آنذاك كالصداقة والفقر ، وتناول ثانيهما المجتمع ذاته ، فصـــور

سوء الحيوات السياسية والدينية والاجتماعية التى يعانى منها ، كما صور عيوب المجتمع، وعلل تلك العيوب بطبيعة الناس ، والاختلاط الاجتماعى ، وسوء الحالة السياسية . وتناول طبقات المجتمع المختلفة ممثلة فى الملوك ، والأمراء ، والوزراء، وأصحاب الخراج ، وخازنى الأموال ، والتجار ، والقضاة ، والنساك ، والفقهاء ، والوعاظ ، والقراء ، والخطباء ، والأدباء ، والعلماء ، والنحاة ، وغيرهم .. وتحدث عن المرأة ووقف منها موقفا متشددا ، وحذر منها ، ودعا الى أن يكون البيت مكانها الطبيعى لتعزل وتردن ، ودعا الى عدم الزواج بها ، وعدّ النسل جناية وشقاء . وقد كان مدفوعا فى ذلك بالظروف العامة التى أحاطت بالمجتمع ، والظروف الخاصة التى كان أبو العلاء يعانى منها . ولكنه لم يكن سلبيا فى جميع مواقفه من المرأة ، فقد دعا الى اختيار الزوج الملائم ، ودعا الى استشارة البنت عند الزواج ، ونهى عن الزواج باكثر من واحدة كما نهى عن زواج الشيخ بالفتاة الكاعب .

وقد أشرنا الى تأثر أبى العلاء بأبى الطيب فى المجال الاجتماعى والخلقى فى الشعر .

وأما الاتجاه الرابع فقد سميناه بالاتجاه التأملى ، وهو مقتصر على أبى العلاء . وقد تحدثنا فيه عما يسمى بالشعر الفلسفى ، ومكان ابى العلاء بين الشعر والفلسفة ، وكيف كان أبو العلاء موصلا للشعر الفلسفى ، أو محدثا نفسا جديدا فى الشعر العربى تصدى فيه للفلسفة ، وبحث عددا من موضوعاتها فى ديوان اللزوميات . وقد انتهينا الى وصف أبى العلاء بالمفكر المتأمل ، ولم نسمه فيلسوفا لأنه لم يكن كذلك ، وانما كان ملما بالكثير من مسائل الفلسفة والمذاهب .

وقسمنا هذا الاتجاه التأملى الى قسمين : تحدثنا فى أولهما عن بعض القضايا العقلية التى تناولها أبو العلاء ، كالحياة والموت ، والجسد والروح ، والخير والشر ، والجبر والاختيار ، والبعث ، والعقل ، والزمان والمكان ، والافلاك والنجوم .

وتحدثنا فى ثانيهما عن بعض القضايا الروحية التى تناولها أبو العلاء ، كالحديث عن الله ، والملائكة ، والجن ، والنبوات ، والديانات السماوية ،

والفرق الاسلامية وغير الاسلامية .

* * *

وفى الفصل الثانى درسنا الخصائص الفنية للشعر فى الشام فى القرن الخامس الهجرى ، فتحدثنا عن الشعر فى نظر شعراء الشام آنذاك ، وبخاصة فى نظر أبى العلاء وابن سنان ، وحاولنا تطبيق تلك المواقف على شعر الشاعرين من ناحية ، وشعر الشعراء الآخرين فى الشام من ناحية أخرى .

ثم درسنا بناء القصيدة فى شعر شعراء الشام ، فتبينا أنه ليس فى شعرهم تجارب شعرية كاملة ، ولم يكن الشعراء ينقلون مشاعرهم واحاسيسهم الحقيقية ، ففى المقدمات الغزلية كانوا مقلدين ولم يعبروا عما يحسون به . وينطبق ذلك على وصف بعضهم للرحلة الى الممدوح ، فاننا نجد قصائد يصفون فيها الرحلة دون أن يرحلوا . وفى أبيات المديح ذاتها ، لم يصدر الشعراء عن تجربة صادقة فى الغالب . ولكن هذا لا يعنى أن قصيدة المديح تخلو من بعض التجارب الشعرية الصادقة ، ومن الأمثلة على ذلك القصائد التى أنشأها أبو الحسن التهامى فى السجن ، أو ما يتخلل قصيدة المديح من الشكوى ، أو ما يتحدث فيه الشاعر عن ذاته ، من امثال : ابن الخياط الدمشقى وأبى اسحاق الغزى .

وفى قصيدة الرثاء نجد بعضها لا يعدو أن يكون شعر مناسبات أيضا ، وهو رثاء لا يعبر عن أحاسيس ومشاعر الشاعر الحقة الصادقة ، ونجد بعضها الآخر معبرا عن أدق أحاسيس الشاعر ، حيث يفضى بذات نفسه ومشاعره على حقيقتها .

وفى الهجاء قد يصدر الشاعر عن تجربة حقيقية مر بها . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ، هجاء أبى العلاء الاجتماعى للناس عامة ، فقد كان أبو العلاء يصدر فى ذلك عن تجربة حقيقية صادقة أحس بها فعبر عنها فى لزومياته .

طرق شعراء الشام فنونا شعرية أخرى كالصداقة والصديق ، والغربة والحنين ، والفقر والحكمة والزهد . وكان معظمهم يعبرون عن تجارب حقيقية مرت بهم وكانوا صادقين كل الصدق فى التعبير عن احساساتهم ومشاعرهم ، يفضون بما تمتلىء به نفوسهم .

درسنا تأثر شعراء الشام بسابقيهم من الشعراء ، فقد تأثروا بالشعراء الجاهليين والاسلاميين والعباسيين ، وأخص بالذكر تأثرهم فى وصف قصة صيد الحمر والثيران الوحشية ، وبخاصة عند أبى العلاء ، وابن أبى حصينة ، وتأثرهم بأبى الطيب المتنبى ، فإن التأثر به يمثل ظاهرة جلية تماما فى شعر شعراء الشام آنذاك ، ويتجلى ذلك التأثر فى شعر أبى العلاء بأجلى صوره .

وتأثر شعراء الشام بعضهم ببعض ، وكان التأثر بأبى العلاء من أبرز ألوان ذلك التأثر ، ويبدو جليا فى شعر ابن أبى حصينة ، وابن سنان ، وهما من تلاميذ أبى العلاء .

وتأثر شعراء الشام بالقرآن والحديث ، ولكن التأثر بالقرآن كان أكثر منه بالحديث .

ولا يفوتنا أن نشير الى التأثر بالتيارات الفكرية والفلسفية المختلفة ، كما هو واضح فى اتجاه أبى العلاء التأملى ممثلا فى اللزوميات .

ودرسنا " الأسلوب واللغة " من حيث صلة الأسلوب بالأغراض الشعرية ، ومن حيث بعض المظاهر الاسلوبية كالغريب ، والدخيل ، والاكثار من المصطلحات المتباينة ، والمخالفات اللغوية ، والتكرار ، وتنقيح الشعر ، والاقتباس والتضمين ، والحوار ، والمبالغة ، وضعف المستوى الشعرى أحيانا .

ودرسنا " الأخيلة والصور الشعرية " ، وبينا أن الصورة الفنية فى شعر شعراء الشام آنذاك تعتمد على الصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية ، وغالبا ما تكون تلك الصور حسية ، وهى صور تقليدية فى غالب الأحيان ، ومنها ما يكون مستمدا من العصر الذى يعيش فيه الشعراء .

لقد اتخذ الشعراء صورهم الشعرية من تغزلهم فى المرأة ، أو من وصفهم للصحراء وحيوانها ، والناقة والفرس وحديثه عنهما ، أو من الطبيعة بمظاهرها المختلفة ، أو من وصفهم لبعض المهن كالكتابة والوزارة ، أو من المظاهر الحضارية المتباينة ، أو من طبائع الناس ، وما يتصل بهم .

ودرسنا " الفنون البديعية " فى شعر شعراء الشام ، وقد وجدنا أنهم يكثرون من استعمال البديع ، على تفاوت فيما بينهم ، وقد طغى الجناس

على غيره من أنواع البديع الأخرى ، وبخاصة عند أبى العلاء المعرى . ومن الأنواع البديعية الأخرى التى استعملوها : رد الاعجاز على الصدور ، والطباق ، والمقابلة ، والتقسيم ، والترصيع ، ومراعاة النظير ، والتورية وغيرها .

ودرسنا " الأوزان " فبينا أن شعراء الشام لم يختلفوا عن سابقيهم فى استخدام البحور ، فى غالب الأحيان .

وأشرنا الى بعض المحاولات الجديدة ، كالقصيدة " ذات الأوزان " ، وقد بينا أنها محاولة تجديدية محدودة ، فلم نجد إلا مثالا منفردا ، وهى تجربة كانت تقوم على التصنع والتكلف ، أما المحاولة الثانية ، فهى ما وجدناه عند ابن أبى الشحناء المسقلانى ، فقد جاء بقول على هيئة أبيات شعرية ، النصف الأول من البيت نثر ، والنصف الثانى شعر .

ودرسنا القوافى ، وخصصنا أبا العلاء بالحديث ، وفى لزومياته خاصة ، حيث التزم فيها مالا يلزم ، وضيّق على نفسه موضوعيا وفنيا . وأطنب أبو العلاء فى الحديث عما يتصل بالقافية ، فقسمها الى ثلاثة أقسام ، وهى : الذلل ، والنفر ، والحوش ، كما تحدث عن بعض حروف الروى ، وميز بعضها بصفة خاصة ، ومن الغريب أنه أهمل ذكر القافية فى تعريضه للشعر .

حاول شعراء الشام الابتعاد عن النظم على القوافى النفر ، وابتعدوا عن النظم على القوافى الحوش ، الا نادرا . وكانوا يكثرون من النظم على القوافى المطلقة ، ولا يقيدونها الا قليلا .

وتحدثنا عن عيوب القافية كالايطاء ، والتضمين ، والايغال ، والحشو ، والالجاء وغيرها . وأشرنا الى اسراف أبى العلاء فى استخدام القوافى الغريبة .

قسمنا الباب الثانى الى ثلاثة فصول ، درسنا فى الأول منها : النثر فى الشام فى القرن الخامس الهجرى ، دراسة موضوعية ، واقتصرنا على دراسة النثر الفنى ممثلا فى الخطابة والكتابة . غير أن الخطابة لم تزد على ما كان يُلقى فى المساجد ، وما أشبه . أما الكتابة فقد كانت اللون الغالب على النثر الفنى آنذاك ، ويكفى أن نذكر ما صنفه أبو العلاء من مصنفات نثرية ، وهى كثيرة جدا ، وتتنوع بين موضوعات متباينة ، ففيها المدائح والتهانى ، والتعازى ، والوصف ،

وفيها تصوير المجتمع بكافة طبقاته ، وفيها وعظ وزهد ، وأدب ونقد .

ولم يقتصر الأمر على أبي العلاء ، فكان من بين الكتاب : ابن سنان الخفاجي ، وابن القارح ، وابن أبي الشحباء .

ونجد بعض الاشارات الى كتّاب الدواوين من أمثال : تادرس النصراني ، وزير صالح بن مرداس ، وأبي العلاء صاعد بن سنان الكاتب ، كاتب محمود ابن نصر المرداسي ، وابن الخياط الدمشقي ، ولكننا لم نجد لهم أثرا ذا بال ، بل اننا لم نجد لهم أي نص نثري . وعلى هذا ، فان فن الكتابة الذي نتحدث عنه عند كتاب الشام في القرن الخامس يقتصر على المكاتبات الاخوانية ، الى جانب المصنفات الأخرى ، كالتي وضعها أبو العلاء ، وهي رسائل ، وشروح ، وكتب أخرى .

اتبعنا في تقسيم النثر نفس المنهج الذي اتبعناه في تقسيم الشعر ، فقد قسمنا اتجاهاته الى أربعة اتجاهات ، وهي : الاتجاه التقليدي ، وتحدثنا فيه عن المدائح والتهاني ، والتعازي ، والعتاب والاعتذار ، والتعريض والذم ، والوصف ، والشفاعة ، والشوق والحنين ، والأدعية ، والحض على الجهاد .

أما الاتجاه الثاني فهو الزهد ، ويقتصر هذا الاتجاه على أبي العلاء المعري ، فقد وضع العديد من المصنفات النثرية المتصلة بذلك ، ومنها : خطبة الفصيح ، والأيك والغصون ، وتضمين الآي ، وتاج الحرة ، وحماسية الراح ، والمواعظ الست ، ووقفة الواعظ ، وسجع الحمائم ، والسجعات العشر ، وعظات السور ، ولكن كل هذه المصنفات لم تصل الينا . وعليه ، فقد اعتمدنا في توضيح هذا الاتجاه على كتاب الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ .

ومما يتصل بهذا الاتجاه المراسلات التي دارت بين أبي العلاء ، وداعي الدعاة حول مذهب أبي العلاء في تحريم ذبح الحيوان ، وتناول ما ينتج . ويتشابه موقف أبي العلاء هذا مع موقفه السابق في اللزوميات . ويبدو أبو العلاء في الفصول والغايات زاهدا مؤمنا ، وجعل من نفسه واعظا يدعو الناس إلى ما فيه صلاحهم الديني والاخلاقي والاجتماعي ، مُريداً أن يكون المجتمع مثاليا ، ولكن دعوته لم تَجِدْ صداها الذي كان يبغيه ، فتقم على الناس ، ويئس من صلاحهم .

ومن الجدير بالقول أن زهد أبي العلاء يصطبغ بالصبغة الفلسفية ، كما رأيناه في شعره في اللزوميات .

أما الاتجاه الثالث، فقد درسنا فيه المجتمع كما يصوره النثر في الشام في القرن الخامس، وبخاصة عند أبي العلاء في فصوله وغاياته . وفي هذا الاتجاه ، تبينا رأي أبي العلاء في الناس عامة ، وفي حكامهم وولاتهم ، كما بينا موقفه من فئات المجتمع كالمنجمين ، والنساك ، والنساء ، وغيرها .

أما الاتجاه الرابع ، فهو الاتجاه التأملي الذي اعتمد أبو العلاء فيه على التأمل والتفكير في قضايا الكون والحياة والانسان . وقسمنا هذا الاتجاه الى قسمين ، تحدثنا في أولهما عن بعض القضايا العقلية كالحياة والموت ، والجسد والروح ، والقضاء والقدر ، والبعث ، والعقل ، وتحدثنا في ثانيهما عن بعض القضايا الروحية كالحديث عن الله والنبوات ، والتقليد في القصيدة ، والفرق الاسلامية ، وغير الاسلامية ، والجنة والنار .

ومن الجدير بالقول أن أبا العلاء لم يتعرض في كتاب " الفصول والغايات " الى الحديث عن بعض الموضوعات المتصلة بالعقيدة كالحديث عن الملائكة والجن ، والشرائع ، بينما أطنب في الحديث عنها في اللزوميات .

ودرسنا في الفصل الثاني : النثر في الشام في القرن الخامس فنيا ، فتحدثنا عن ظاهرة تصنيف الكتب بطلب من أمير أو رئيس أو قائد أو صديق أو غيرهم . وقد وضع أبو العلاء الكثير من مصنفاته بطلب ، ومنها : رسالة الصاهل والشاحج ، والقائف ، وتضمين الآي ، وبعث الوليد ، وذكرى حبيب ، وغيرها .

وأما الظاهرة الثانية التي تحدثنا عنها فهي النزعة التعليمية في نثر أبي العلاء ، وقد ظهرت جلية في العديد من آثاره ، ولذلك مال الى التفضيل والاستقصاء للمسائل الأدبية واللغوية والعروضية التي تحدث عنها في الكثير من آثاره .

وأما بالنسبة للرسالة الاخوانية ، فنجدها عند أبي العلاء ، وابن أبي الشبل ، وابن القارح ، وقد تبينا أن الرسالة الاخوانية هي الغالبة على فن الرسائل عند كتاب الشام في القرن الخامس .

وتحدثنا عن بعض الظواهر المتعلقة بالرسالة ، كالبدء والختام ، ورسائل المناسبات ، واختلاف مفهوم فن الرسالة عند أبي العلاء عنه عند غيره من كتاب الشام آنذاك .

وتحدثنا عن بعض السمات التي يتسم بها النثر آنذاك ، كالصدق في التعبير عن الذات والمبالغة والسخرية والتهكم والتشاؤم وتتضح تلك السمات في نثر أبي العلاء بكل جلاء .

وتحدثنا عن تأثر كتاب الشام بالقرآن والحديث والشعر والأمثال ويبدو ذلك التأثر بأجلى صورة في نثر أبي العلاء ، هذا الى جانب تأثره بالتاريخ والفلسفة ، وغيرهما ، أما غيره من الكتّاب فغالبا ما يقتبسون آية ، أو يضمنون كلامهم ببيت شعري أو مثل .

كان لأبي العلاء أثر كبير في غيره وخاصة أولئك الذين تردد وا على مدرسته الأدبية والفكرية بالمعرة ، وعارض بعض الأدباء بعض كتبه ، ومنها السجع السلطاني ، وخطبة الفصيح ، وملقى السبيل ، وقد عارضها الأندلسيون واعتنوا بها عناية خاصة .

أما المظاهر الأسلوبية واللغوية التي اتسم بها النثر في الشام في القرن الخامس فتتمثل في الأسلوب القصصي الرمزي ، الحواري ، كما يتسم بعضه بأنه أسلوب خطابي تقريري وفيه كثير من التكرار ، هذا بالاضافة الى ما يتسم به من الاستطراد ، والاكثار من الجمل المعترضة .

أما اللغة ، فالاهتمام بها جلي في آثار أبي العلاء ، حتى نستطيع أن ننظر الى بعض آثاره وكأنها معجمات لغوية ، وقد تأثر أسلوبه بنهجه اللغوي هذا ، فأكثر من الغريب ، بل أسرف فيه ، كما استعمل بعض الألفاظ والتعبيرات المكررة ، واستعمل بعض الألفاظ الدخيلة أيضا .

هذا بالاضافة الى ما تميز به أسلوبه من تصنع وتكلف ، فقد بنى كثيرا من آثاره على حروف المعجم ، وأسرف في استعمال الغريب والبديع ، والمصطلحات . ولكن هذا لا يعني أن أبا العلاء كان كذلك في جميع آثاره ، فقد اتسم اسلوبه في بعضها بالسهولة والوضوح ، ومثل ذلك ما نجده عند ابن أبي الشخباء ، وابن سنان .

وأما عن الاخيلة والصور ، فقد تبينا إبداع أبى العلاء فى خياله المتمثل فى رسالتى الغفران ، والملائكة ، وهو خيال متأثر بما كان يختزنه أبو العلاء فى مخيلته . هذا الى جانب الخيال الجزئى الذى اعتمد فيه على الصور البيانية كما نجده فى الفصول والغايات ، وفى رسائله المختلفة .

ودرسنا فى الفصل الثالث النقد الأدبى ، كما وجدناه عند أبى العلاء فى العديد من آثاره النثرية ، وابن سنان فى كتابه " سر الفصاحة " .

وقد قسمنا هذا الفصل الى قسمين : تحدثنا فى أولهما عن بعض القضايا النقدية العامة ، كالحديث عن مفهوم الشعر ، وصناعة الأدب عامة ، والصدق والكذب ، وتجدد المعانى الشعرية ، وتقسيم الشعر والشعراء ، والغريزة الشعرية ، والقديم والحديث ، والسرقات الأدبية ، والرواية والرواة ، والانتحال ، والتفريق بين الشعر والنثر ، والقصيد والرجز ، هذا بالاضافة الى مسألة أخرى وهى الاعجاز فى القرآن الكريم .

وتحدثنا فى ثانيهما عن النقد التطبيقى ، سواء أكان ذلك نقدا لغويا ونحويا ، أم نقدا عروضيا ، كما يتمثل عند أبى العلاء ، أم نقدا بلاغيا ، كما يتمثل عند ابن سنان الخفاجى .